أن تقول ما تشاء . ولكن السياج غريب يقترب بعضه من بعض أو يتلاصق . والطفل يريد أن ينسل فى ثناياه . لا يستطيع الطفل أن يتصور بينه وبين السياج صراعا حادا مباشرا . الطفل يريد أن يتسلل . السياج قائم قوى . والطفل لا يفكر فى غير النفاذ الخفى الخفيف . يريد الطفل إذن أن يترك الدار : أمه وأباه وإخوته وعمه والشيخ والعريف ، والقاضى . يريد أن يترك هؤلاء جميعا وأن يأخذ طريقا آخر . يريد أن يختفى من أعينهم ليظهر بعد ذلك فى مكان ثان حيث لايُعهد أو لايتوقع . أهذا حلم قديم . هل نستطيع أن ننكر على طفل حقه فى العبث وامتحان قدرته ، ومداعبة السياج القريب من الدار . لأمر ما سبقَ الكلام عن مداعبة السياج أى كلام آخر عن العلاقة البشرية بين الطفل وزملائه الأطفال . السياج منافس لهذه العلاقة . السياج يعكر صفو هذه العلاقة إلى حد ما .

إننا لا نستطيع أن نجتنب صورة المؤلف كبيرا أو أستاذا ، وأديبا ، وباحثا . ولا يستطيع المؤلف نفسه أن يبعد تماما عن مجادلة العصر . نعم فالمجادلة لفظ مفيد . المؤلف يريد أن يقيم مسافة بينه وبين الماضى ، ومسافة ثانية بينه وبين الحاضر . يريد أن يحاور هذا وهذا ، ولكن الفن فى بعض مستوياته سذاجة . فكيف يوفق الكاتب بين السذاجة والجدل ، بين التلقائية والمراجعة ، بين قبول بعض العناصر ومساءلتها أو الاحتياط فى مواجهتها . هذا سر ، والكاتب على كل حال يعول على الكلمات التى يأخذ بعضها مكان بعض من ناحية ، والتداعيات البعيدة من ناحية ثانية .

والمهم أن الكاتب يفرغ لخواطر الطفولة واعتقاداتها : السياج ، ويجب ألا ننسى ، يمتد من ناحية إلى حيث لا يعلم له نهاية . ويمتد عن يمينه إلى آخر الدنيا . سياج غريب حقا ، وإن كان سياق الطفولة يخفى غرابته . ولم يمض على الكتاب سوى أسطر معدودة . مازلنا فى الصفحة الثانية منه . ولكننا نساق دون تمهيد إلى ما ينتهى وما لا ينتهى . وهكذا نجد عالم الطفل لا يتألف من خطاب اجتماعى واضح ، ولا يتألف من طائفة من اللعب . طفل ينسلخ من المجتمع ، ويعمد إلى سياج . ويتصور السياج مرتبطا بنهاية الحياة الدنيا . والحياة الدنيا حلقة فى سلسلة لا تنتهى . الكاتب لا يستطرد ، ولا يقحم شيئا على الطفولة . ولكن لم يسع الكاتب أن يمر مرا سريعا على السياج ، وقف عنده واستوقفنا ، فقال : السياج ينتهى من بعض النواحى إلى قناة عرفها حين تقدمت به السن ، وكان لها فى حياته ـ أو قل فى خياله ـ تأثير عظيم . كانت